مع الكولونيل خليفة الطائي

بخلاف رواياته التي تميّزت بالغرائبية والسحر، يحكي الروائي العالمي غابرييل غارسيا ماركيز في روايته القصيرة «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه» حكاية رجل عسكري برتبة كولونيل، أُنهيتْ خدماته العسكرية بعد أن خدم وطنه وشارك في الحرب الأهلية التي انتهت، ليجد نفسه يعيش في كوخ صغير براتب تقاعدي ضغيف جداً، بالكاد يكفيه مع زوجته المريضة بالربو، إلا أنّ الكولونيل ظلّ على مدى خمس عشرة سنة ينتظر زيادة راتبه التقاعدي، مؤمناً بأنَّ الزيادة حتماً ستأتي؛ فكان يذهب كلَّ يوم إلى مكتب البريد لعله يجد رسالة تخطره بزيادة ذلك الراتب، ولكنه لا يجد تلك الرسالة، فيُعلِّل المسألة بأنّ هناك خطأ مّا وأنّ الرسالة لا بد أنها ستأتي. وبما أنه كان يعيش على حلم التكريم ورفع الراتب التقاعدي، استطاع أن يتحمّل مرارة الحياة ومشاقّها، إلا أنّ الرسالة المنتظرة لم تأت، والعمرُ قد تقدَّم به وأصبح عجوزاً يعتصره ألم التضحيات التي قدّمها لبلاده دون تقدير.

زاهر بن حارث المحروقي

ما أشبه قصة كولونيل ماركيز مع قصة الكاتب والمخرج الإذاعي خليفة بن صالح الطائي الذي أوجد الدراما الإذاعية في عُمان؛ بعد مشوار طويل من العطاء في المجال الإعلامي عامة وفي مجال الدراما بشكل خاص، زادت على أربعة عقود، ترك فيها خليفة الكثير من التمثيليات والمسلسلات والبرامج ما بين تأليف وإعداد وإخراج. خرج الطائي إلى التقاعد وفي قلبه غصةٌ على ترك مكانٍ ساهم في بنائه «طوبة طوبة»، إلا أَنّ الألمَ الذي اعتصر قلبه أكثر، هو أنه « ككولونيل ماركيز» ظلّ يأمل أن يتم تكريمه على عطائه أكثر من ٤٠ عاماً، إلا أنّ التكريم لم يأته لا من قبل الجهات الرسمية ولا حتى من الذين عمل معهم والذين قدَّمهم عبر الميكروفون خلال تلك الفترة التاريخية التي شهدت تأسيس الدراما في عُمان؛ وهي فترة تحتاج إلى التوثيق، إلا أنّ الإهمال للأسف أضاع علينا الكثير.

كان دخول خليفة بن صالح الطائي إلى مبنى الإذاعة في بيت الفلج في شهر نوفمبر من عام ١٩٧٠، بعد افتتاح الإذاعة العُمانية بشهرين تقريباً، وكان صغيراً في العمر، ولكنّ الحماس كان هو المسيطر والسائد لدى كلِّ الذين اشتغلوا في تلك الفترة، وقد تصادف أن يكون يومُ تعيين خليفة الطائي هو نفس اليوم الذي تعين فيه الأديب أحمد الفلاحي في الإذاعة؛ فكانا ضمن تلك الكوكبة الأولى التي أسست للعمل الإعلامي ووضعت اللبنات الأولى والأساسية للإذاعة وللتلفزيون فيما بعد.

إيماناً من خليفة الطائي بأنّ الدراما هي أسرع مادة إعلامية يمكن أن تؤثر في الناس، فقد اتّجه إلى التأليف والإخراج الدرامي، فكان ثاني شخص يكتب الدراما في عُمان، بعد الراحل عبد الحليم محمد، الذي ألف أول تمثيلية تبث عبر أثير الإذاعة وذلك عام ١٩٧١، تحت عنوان «طلب العلم» شارك في التمثيل فيها عبد الحليم محمد نفسه، وكذلك منى بنت محفوظ المنذري، التي كانت الوجه النسائي الوحيد في الإذاعة حينها، والتي شاركت في معظم التمثيليات الأولى، فيما ألف خليفة أول تمثيلية له تحت عنوان «طيع من يرشدك إلى الخير».

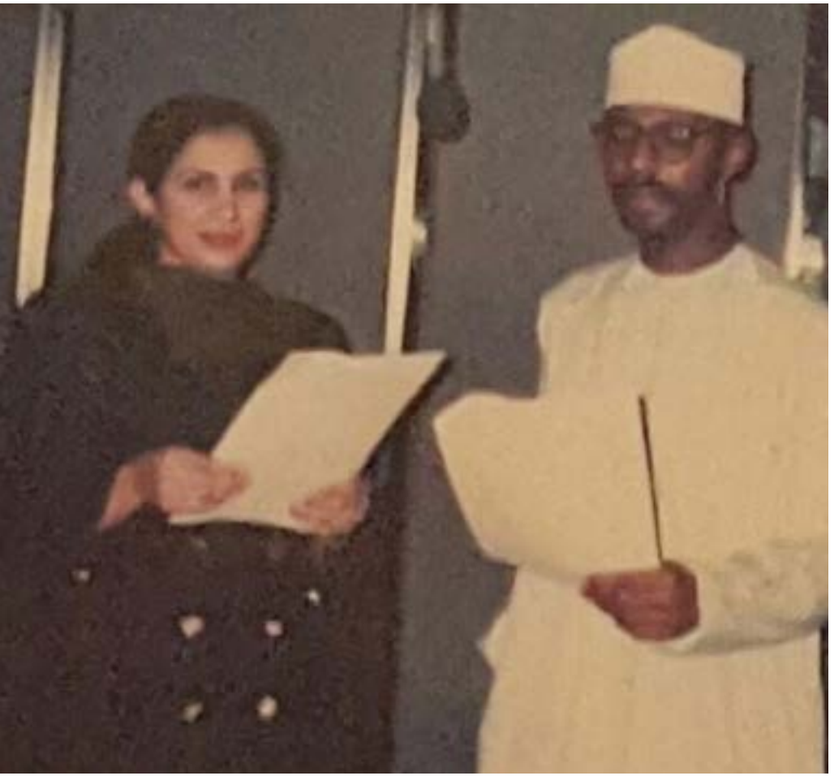

لقد تدرَّجت الدراما العمانية وارتقت واختلفت من زمن إلى آخر؛ ففي البداية كانت مدة التمثيلية ربع ساعة فقط، ثم زادت المدة إلى نصف ساعة، حيث كانت تبث أسبوعياً تحت مسمى «تمثيلية الأسبوع»؛ ومع مرور الوقت اتجه القائمون على الدراما إلى إنتاج خماسيات فسباعيات، وهي عبارة عن مسلسل صغير من خمس أو سبع حلقات، ومع مرور الأيام صارت المسلسلات تتكون من خمس عشرة حلقة فثلاثين؛ وكانت هذه التمثيليات تبث في الرابعة والنصف عصراً من يوم الجمعة قبل أن تتحوَّل إلى يوم الأربعاء، تحت مسمى «تمثيلية الأربعاء»، التي لها الفضل في ولادة الكثير من أبرز كتّاب عُمان اليوم.

من يستمع إلى موضوعات تلك التمثيليات في تلك الفترة، يجد أنها كانت دراما موجهة، تركّز على القضايا الاجتماعية والتنموية، بلغة بسيطة ولهجة مسقطية مهضومة ليس بها تكلّف ولا تقليد اللهجات الأخرى، مثلما حدث فيما بعد عندما صرنا لا نعرف هوية التمثيلية، لأنّ بها كلمات مثل «شو» و«شنهو» و«منو» و«أنا أجول لك»؛ فالإرسال الإذاعي في بداياته كان يغطّي مسقط فقط، وكان المجتمع العماني في تلك الفترة مجتمعاً بسيطاً ناهضاً، يشاهد كلَّ يوم شيئاً جديداً، في البناء والتنمية، وخروج الفتاة للعلم ومشاركة المرأة في العمل، وغيرها من قضايا تلك الفترة مثل

قضية غلاء المهور.

في حديثه عن ذكرياته مع الإذاعة، ذكر خليفة الطائي للزميل محمود بن عبيد الحسني في برنامجه «ساعة من أرشيف الإذاعة» في حلقة أذيعت بتاريخ ٢ مايو ٢٠١٤، أنّ العمل في الدراما في الماضي كان أسهل بكثير عن الوقت الحاضر؛ فلم تكن هناك لائحة الأجور، إذ كان الكلُّ يعمل بدون مقابل، وكانت الفرصة متاحة لكلِّ من يملك موهبة في الكتابة أن يقدِّم عمله إلى الإذاعة، فيتم مراجعته فإذا تطلَّب التعديل يتم ذلك بالاتفاق مع المؤلف، أمّا عن الممثلين فقد كان يتفق معهم خليفة نفسه أو أيّ مخرج آخر، وقد كان أشهر مخرجي الدراما في الإذاعة العمانية في بداياتها هم عبد الحليم محمد، وخليفة بن صالح الطائي، ومحمد بن ناصر المعولي، وكذلك الراحل جمعة بن سالم الخصيبي الذي كان ممثلاً بجانب عمله كمخرج للدراما، قبل أن ينضم إلى الإخراج الدرامي جيلٌ آخر مثل: أحمد بن سعيد الإزكي، وسعود بن سالم الدرمكي، وطالب بن محمد البلوشي، ومحمود بن عبيد الحسيني، وكان من أبرز المخرجين العرب الذين عملوا في مجال الدراما الإذاعية محمد مرعي ومحمد حامد. أما أبرز المؤلفين في فترة السبعينيات فكانوا عبد الحليم محمد، وحامد مزار، وصالح شويرد، قبل أن ينضم الكثيرون إلى القائمة خاصة في منتصف الثمانينيات والتسعينيات التي شهدت طفرة كبيرة في مجال الإنتاج الدرامي في الإذاعة، شارك في التأليف فيها كتَّاب عرب مثل إبراهيم شعراوي، مصطفى حشيش، أبو الوفا القاضي، وإبراهيم صالح وغيرهم، أما العمانيون فكان أبرزهم أحمد بن درويش الحمداني الذي شكّل قفزة في مجال الدراما العمانية.

من التمثيليات الأولى التي بثتها الإذاعة، تمثيلية اجتماعية بعنوان «الأمل الكبير» والتي أخرجها خليفة الطائي، أما التأليف فكان لرحيمة حبيب، والمونتاج لجمعة العلوي، أما الممثلون فهم: رحيمة حبيب، عبد الحليم محمد، صالح زعل، سكينة مهدي، سعد شالون، سعيد مسلم، رجاء أحمد، وبدرية سويد. أما تمثيلية «الرسالة البريئة» فهي من تأليف سعيد علي سعيد، وإعداد حمود بن سالم، وإخراج خليفة الطائي؛ وممثلوها هم: طالب علي، إنعام أحمد، فريدة سخي، رابحة محمود، سعود غابش الطارشي، سعيد الصوري، سعيد مسلم، وصالح زعل.

ما بين تمثيلية «طيع من يرشدك للخير»، ومسلسل «جرح على صدر الزمن» وهو آخر مسلسل إذاعي كتبه وأخرجه خليفة الطائي قبل أن يتقاعد عن العمل في يناير ٢٠١٥، ترك خليفة إرثاً كبيراً من المسلسلات والتمثيليات، وقدّم للدراما والفن العمانيَّن العديد من الأعمال المميّزة مثل مسلسل «وعاد الربيع»، الذي أخرجه حسن حافظ والعديد من الأعمال الدرامية المميّزة، إلا أنّ عمله لم يقتصر على الدراما فقط، فقد ساهم في إخراج الكثير من البرامج الإذاعية، قد يكون أشهرها برنامج «بلدي عُمان» الذي كان يُبثُّ يوم الجمعة، إذ قام الطائي وفريق إذاعي متكامل بزيارة عُمان كلّها من أقصاها إلى أقصاها، وغطى الكثير من المناطق، إذ كان هناك فريقٌ متكاملٌ يشارك في التغطية، منهم من الكوادر المصرية التي عملت في عمان، صبري يس، وزكريا شليل، وجودت بسيوني، إضافةً إلى العمانيين مثل محمد المرجبي، وأحمد خميس الحوسني، وعيد بن حارب المشيفري، وسالم بن سيف العادي، وهو أول معلق رياضي عُماني؛ ومن الفنيين سليمان بن سالم الغافري ومسلم بن سعيد الشكيري وسالم بن حمود الإسماعيلي وغيرهم، وقد نال البرنامج شهرة كبيرة لأنّه خرج بالميكروفون من مقر الإذاعة بالقرم إلى الجبال والأودية والصحاري، وكان منوّعاً إذ شملت لقاءاته المسؤولين الرسميين من ولاة وغيرهم إلى كافة القطاعات الرسمية وكذلك الأنشطة الرياضية والثقافية والشعبية، لذا كان الفريق يضم مذيعين رسميين ورياضيين وشعبيين. وإذا كنا نقول إنّ الإذاعة شهدت في فترة الثمانينيات عصرها الذهبي، فقد كان برنامج «بلدي عمان» إضافة إلى «البث المباشر» و«صباح الخير يا بلادي» و«تمثيليات الأربعاء» والبرامج الإخبارية والسياسية وغيرها من البرامج، هي أبرز عناوين تلك الفترة.

كان مكتبي في الإذاعة في فترة الثمانينيات قريباً من استوديوهات الإذاعة في الدور الأرضي، لذا كنتُ شاهداً على تلك الزحمة التي سبّبتها الدراما الإذاعية، فقد كانت الأستوديوهات والمكاتب وممرات الإذاعة خلية نحل من كثرة الممثلين والممثلات، وكنا نشاهد يوميّاً وجوهاً مألوفة ووجوهاً جديدة، فاحتلت الدراما نسبة مئوية مرتفعة في البرنامج اليومي، إذ كان هناك أكثر من مسلسل وأكثر من تمثيلية في اليوم، كما أننا طوّعْنَا التمثيليات في البث المباشر، حيث كنا نبث تمثيلية بسيطة بعد أن نطرح موضوع النقاش كتمهيد لما سيتم طرحه في البرنامج. ولكن السؤال هو: ما هي الأسباب التي جعلت تلك الفترة هي الفترة الذهبية للدراما؟، وما هي الأسباب التي جعلت الدراما تتراجع؟،

حسب رأي أحمد بن سعيد الإزكي أنّ أسباب التراجع «تعود إلى عزوف الرعيل الأول من كتّاب الدراما، وكذلك الجيل اللاحق لهم عن الكتابة للدرما، ربما بسبب لائحة الأجور المنخفضة؛ كما أنّ الإذاعة طوال السنوات الماضية لم تؤهِّل كتّاباً للدراما، ومَن لديه موهبةٌ الكتابة فغالباً لا يتقبّل الرأي أو الملاحظة على نصوصه ولسان حاله يقول لا مساس، رغم أنهم في الأصل مقلون».

لا يمكن لمن يوَثِّق لتاريخ الدراما في إذاعة سلطنة عمان أن يتجاهل تلك القامات الكبيرة التي كان لها الفضل في ظهور الدراما العمانية، فقد شهدت الإذاعة إنتاجاً دراميا غزيراً، تاريخياً، اجتماعياً، كوميدياً، تمثيليات أسبوعية ورباعيات، كلها في دورة برامجية واحدة تقريباً. وقد أنجبت تلك الفترة الكثير من الكُتّاب والمخرجين والممثلين الذين أثبتوا حضورهم على الساحة وحصدوا جوائز على مستوى الوطن العربي، مثل الكولونيل خليفة بن صالح الطائي، وطالب بن محمد، وفخرية خميس، وشمعة محمد، فضلاً عن كتّاب مميّزين، مثل صالح شويرد، أحمد بن درويش الحمداني، وأحمد الإزكي، ويعقوب الحارثي، ورحمة بنت علي الصالح، وشيخة الفجرية، وعصام الزدجالي، وناصر الرقيشي وغيرهم ممّن تحضرني أسماؤهم وممّن تغيب عني، ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، إلا أنّه لا بد من الإشارة إلى الأسماء التي ظهرت مؤخراً وحققت وجودها مثل د. سعيد السيابي، وسليمة المشرفي، ونعيم فتح مبروك، ومنى بنت أحمد اليحيائي.

حتى هذه اللحظة، فإنّ الكولونيل خليفة بن صالح الطائي ليس لديه من يكاتبه، ولكن الفرصة ما زالت قائمة لتكريمه وتكريم جيل الرواد والمؤسسين في المجالات كافة. فمِثلُ جيل السبعينيات والثمانينيات من الصعب أن يتكرر.